عامر

شيماء جاد - مصر

ظهيرة يوم قائظ حيث تلتصق الملابس المبللة بالعرق على الأجساد وتلتحم بها كأنها كيان واحد، جلست "نادين" في مكتب شئون الطلاب بالجامعة تنتظر حضور تلك الموظفة البدينة المختصة باستخراج شهادات التخرج للطلاب القدامى، الغرفة خانقة تفوح بها رائحة الشطائر التي انتهت الموظفات للتو من تناولها وكأن مكان العمل هو المكان الملائم للإفطار، هناك مروحة عتيقة الطراز تتحرك برتابة تصدر ضجيجًا بأكثر مما تصنع هواءً أو تلطف الحرارة.

تطلعت حولها بعينيها الجميلتين التي تحمل مسحة من الحزن زادتها غموضًا وجاذبية، الحنين هو ما يعبث بمشاعرها الآن وكأن حياتها ينقصها ذلك الشعور بالشجن الذي يورثه الحنين، حنين لأيام مضت على قسوتها أنذاك فقد كانت أجمل وقعًا مما تلاها من أعوام.

شردت وعادت بذاكرتها لعشر سنوات مضت، جالت على ثغرها ابتسامة شاحبة كشحوب مريض منهك يحاول التظاهر بأن كل شيء بخير، كثيراً ما تفعلها، تبتسم بينما داخلها يئن من الوجع ومن ثقل الأنفاس التي تخرجها كي تبقى على قيد الحياة.

أخيرًا أتت الموظفة تلوك قطعة من العلكة بينما تقول بلا مبالاة: هل كتبت طلب الحصول على شهادتك؟

قالت "نادين" بتهذيب حمل قليلًا من الضجر: نعم سيدتي، الطلب جاهز وكل الأوراق المطلوبة جاهزة.

مدت الموظفة يدها تستلم الأوراق منها بينما تقول بروتينية اعتادتها مع مرور الأعوام بالعمل: حسنًا ستتركين الأوراق وبعد أسبوع ستعودين لاستلامها.

قالت "نادين" بفزع: أسبوع!! ألا أستطيع الحصول عليها قبل ذلك؟ أحتاجها قبل نهاية الأسبوع.

قالت الموظفة بنفس اللهجة الرتيبة دون أن تنظر بوجهها: أسبوع يا آنسة "نادين".

"آنسة" هذا أعاد السخرية إلى ملامح نادين المتشنجة، هناك أخيراً حسنة بحياتها؛ وهي ألا يراها الآخرين كامرأة تعدت الثلاثين من عمرها لم تعد تنتمي إلى فئة الآنسات بتاتًا.

لكنها عادت إلى واقعها المزري مرة أخرى قائلة بإلحاح: لكن،،، أريدها قبل نهاية الأسبوع، هناك ظروف و.....

قاطعتها المرأة بسأم: لست من يسن القوانين، يمكنك الذهاب إلى المدير وإبداء اعتراضك هناك؛ وحينها سأكون شاكرة لوجود من ينفث غضبه عليه بدلًا من

إحدانا.

قالتها ثم تطلعت بسخرية نحو "نادين" بينما تبتسم بلزوجة فتعالت الضحكات من بقية الموظفات اللاتي يجلسن خلف مكاتبهن يعملن بلا حماس.

شعرت "نادين" بالحنق، سرت بعروقها دماء لاهبة دفعتها للنهوض قائلة بقسوة: حسنًا سأذهب للمدير.

خرجت من الغرفة تلوذ بالفرار وكأنها تخشى أن تفرغ كبتها بهن أو تنهار فتسقط دموعها التي سجنتها طويلاً داخل مقلتيها الجميلتين.

توجهت لغرفة المدير فتوقفت تلتقط أنفاسها وترتب هندامها بشكل عشوائي وكأنها تسعى لإحراز بعض النقاط ضدهن بحسن هندامها، طرقت الباب ثم دخلت بوجل لتحدق بالرجل الجالس خلف مكتبه يطالع شاشة حاسوبه باهتمام، سالفه الأبيض نغز قلبها وذكرها بأحدهم، تنحنحت قائلة بحرج: هل أدخل؟

رفع وجهه نحوها ثم توقف الزمن، جمدت الصورة وكأنها صورة من مشهد تم رسمه بعناية، العينان السوداويتين تحدقان بها ترسم ملامحها بحب، النظرة التي ارتسمت بعينيه حركت قلبها رغمًا عنها، نظرة لهفة ووجع وكلمات كثيرة لا يمكن البوح بها أو نطقها، فلم تسمح له ذات مرة بنطقها وها هي الآن تقف أمامه بكل بهائها فعجز لسانه عن النطق.

كانت أول من تحدث، قالت بدهشة: أستاذ عامر!!

خرج من صدمة رؤيتها التي هزت كيانه وسحقت قلبه، نهض بارتباك جديد عليه وقد علق لسانه فاكتفى بالتحديق بها وابتسامة ترسم محياه فتلونه وتزيده جاذبية على جاذبيته التي كانت تأسر الفتيات من عشر سنوات فيتكالبن على مكتبه بحجج عشوائية طامعات في نظرة منه أو ابتسامة.

تقدمت بوجل وقد علا وجيب قلبها توترًا، فآخر مرة تحدثت بها إليه كانت كارثة استحقت عليها المعاناة التي مرت بها فيما بعد، قالت بصوت خرج سعيداً ممتزجًا بقلق ورهبة: مبارك عليك منصب المدير، تستحقه بجدارة.

خرج من صمته، صوته المبحوح ربما من إثر تلك المصادفة: أشكرك يا "نادين"، تفضلي اجلسي.

سحبت مقعدًا أمام مكتبه فجلست عليه دون أن تنتبه لنظراته التي تجول على ملامحها وكأنه يرسمها من جديد، عيناه تفحص أصابعها الخالية من محبس الزواج، تنهد بارتياح قال بصوت أجش: جميل أن أراك بعد كل تلك السنوات، ما هي أخبارك؟

سؤاله أقلقها بطريقة ما فتصلبت لكنها قالت بهدوء: بخير.

قالتها ثم اكتفت وكأنها تأبى أن تريح عناء ذهنه المشتت، قالت بطريقة مباشرة: لقد أتيت هنا بخصوص طلب.

رمقته بعينيها مستجدية إياه بصورة غير مباشرة، ربما كانت قاسية فيما يخص أهدافها المباشرة فتقتنصها دون هوادة، وفي حالتها تلك علمت أنها ستكون الرابحة، حين لمحت نظرته المستفهمة قالت بصوت خفيض: أردت الحصول على شهادة تخرجي بصورة أسرع لكن الموظفة ترفض أن ترعى ظروفي.

قال باستفهام: متى تريدينها؟

سددت نحوه نظرة بريئة: لو استطعت أن أحصل عليها اليوم قبل الغد!

استفهم منها بفضول: تحتاجينها بشدة، هل لي بمعرفة السبب؟

صمتت، أتخبره بالسبب الفعلي أم تختلق واحدًا؟! قالت بصدق: أريد توثيقها من الخارجية لأني أحتاجها للسفر، سأسافر بنهاية الأسبوع.

تغضنت ملامحه، قلبه رجف مرة أخرى لكن بعنف، ستسافر؟! ألا يكفي رحيلها مرة من أمام عينيه، هل سترحل وتتركه خلفها؟! وقلبه الحائر، هل سيتحمل فكرة البعد المكاني فضلًا عن الزماني!

صمت وطال صمته، يحلل كل هواجسه وأفكاره، أمازالت تعني له شيئًا؟ أمازالت ذلك الحلم الذي سعى يومًا لاقتناصه، حال قلبه يخبره بأنها مازالت، وحال عقله يأمره أن يتماسك ويشد عضده ببعضه وألا ينهار أمامها كالساذج، فرفضها له منذ سنوات أوجعه بشدة ونزع منه روحه بقسوة تاركة له الفتات ليحيا به.

شهق فسحب الهواء البارد من الغرفة ثم زفره بقوة محملاً بالحمم، قال بتعاطف: من الصعب إنهاء الأمر اليوم، أستطيع تعجيل الأمر كي تحصلي عليها بالغد، هل يناسبك ذلك؟

قالت بلهفة: نعم بالطبع.

نهضت وهي تتمتم بسرها أن ذلك من حسن حظها، لكنه أشار لها بيده أن تجلس قائلًا: إذاً انتظري حتى أستدعي الموظفة المعنية بالأمر.

جلست وقد أصابها التوتر، هل ستواجه تلك السيدة التي تلوك قطعة العلكة مرة أخرى، ربما تتنمر عليها في مخيلتها فتتساءل عن كنه العلاقة بينها وبين "عامر"،،،

لكن دخول الساعي إلى الغرفة قطع عليها قلقها بينما تسمع صوت عامر القوي يطلب منه إحضار الموظفة سناء، تأملته، وسيمًا كما كان، بل أكثر وسامة بمراحل وذلك الشعر الفضي يتخلل شعره حالك السواد، ربما اكتسب وزناً عما سبق وبرزت بطنه قليلًا لكنه مازال جذابًا يأسر العين بطلته وحسن هندامه، عمره الآن ربما تجاوز الأربعين بسنتين أو ثلاث، جال بخاطرها سؤال سخيف "هل تزوج؟ هل لديه أطفال؟"

عرضه الزواج عليها بآخر عامها الدراسي أحرجها بشدة، فقد ارتبطت منذ عدة أشهر بأحد أقاربها مؤجلين خطوة إعلان الخطوبة ريثما تنهي دراستها بالجامعة، ربما لو كان في ظروف أخرى لكانت وافقت عليه، لكن القدر سبق ووضع كلمته حين اختار قلبها الحب فتمسكت "بأحمد" الذي أحبته ورفضت قلب "عامر".

انتبهت من شرودها على نظراته المتفحصة، خجلت فتطلعت أرضًا لتسمع صوته قائلًا: ما زلت كما أنت، هل تحتالين على الزمن؟

رفعت أنظارها تطالعه بدهشة ثم تبسمت وقد غمرها الفرح قليلًا، قالت: بل احتال الزمن علي فترك بصماته داخلي وليس على ملامحي.

وكأن جوابها أحزنه أو مس جرحًا خفيًا به: الزمن حين يحتال يلعب ببراعة، قلما من ينجو من ألاعيبه.

صمتت وصمت وبينهما كلمات تأبى الخروج من قلوبهما المثقلة، وأسئلة يعجز اللسان عن ترجمتها لحروف سليمة دون أن تتهشم على حاجز الشفاه، ثم أتت تلك الطرقات على باب الحجرة لتنتزعهما من بحر الأفكار المتلاطمة.

قال "عامر" للسيدة ذات العلكة: هذه الشهادة تهمني بشكل خاص، أريدها جاهزة بالغد.

رمقتها السيدة بنظرة لئيمة بينما تقول للمدير بتهذيب: حاضر سيدي.

خرجت فنهضت "نادين" على قدميها، تريد أن تهرب بأقصى سرعة، فهدوئها الآن قد تبعثر، بعض الأماني العالقة داخلها كأنثى تشتهي الوصال ولا تجده عادت تطفو إلى سطح حياتها، ذلك الركود الذي اعتادته طوال سنوات حركته نظرة عين متلهفة وأسئلة عن أحوالها، هل جنت بسبب قليل من الاهتمام؟ هل قرارها بالرحيل للعمل بالخارج هروبًا من ذكريات زواج تعيس كان الحل الأمثل لها ولطفلتها الصغيرة؟ لا تحتاج للتشتت، بل تحتاج لتلك القوة التي تغذي بها روحها دومًا، ارتدت قناعها ذو الرقم عشرين ربما، فمن كثرة الأقنعة اعتادت نسيان ترقيمها الذي ابتدعته لنفسها، قالت بلهجة رسمية: أشكرك سيد عامر، سعيدة برؤيتك، وشاكرة لك فضلك.

نهض في وقار يحجب عنها عينيه فلا ترى ما يجيش به صدره، قال بنفس لهجتها الرسمية: بل السعادة لي كلها يا "نادين".

خرجت تفر من مكتبه وكأنها تفر من براثن مشاعرها المجنونة، ربما كانت تحبه هو لكن "أحمد" زوجها السابق نجح في تضليل مشاعرها حينما كانت يافعة، من هو "عامر"؟! حتى اسمه له وقع قريب من قلبها،،، نهرت جنونها وعنفت مشاعرها، أخرجت نظارتها الشمسية لترتديها وكأنها تحجب اضطراب قلبها أن يغزو عينيها.

****

ترجلت من سيارة الأجرة بعد أن نقدت سائقها نقوده، تخفي عينيها المنتفخة إثر الدموع خلف نظارتها الشمسية بينما تجر حقيبتها الوحيدة خلفها بعجز؛ ليس لثقلها لكن لثقل خطواتها وهي ترحل لأول مرة مفارقة ابنتها التي امتلكت قلبها، ظروف الحياة دفعتها لذلك، فلا أب يعيل ابنته بعد أن نفض يده من مسؤوليتها ولا أسرتها تستطيع التكفل بمساعدتها بعد وفاة والدها الذي تكفل بها لعدة سنوات.

الفراق،،، ما أصعبه من خطوة نخطها بإرادتنا بعد أن ترغمنا الحياة على تذوقه، هل سيكتب لها العودة لتحتضن صغيرتها مرة أخرى؟! هل ستستطيع أن تستقر بالخارج ثم ترسل تذاكر السفر لوالدتها وابنتها ليجتمع شملهم بمكان آخر غير الوطن،،،

كلها أسئلة بلا إجابات تطوف بخيالها المؤرق منذ عدة أشهر،،،

هل هو حقيقي؟! أهذا الذي يقطع طريقها هو "عامر"؟

توقفت مشدوهة تنظر له بينما وقفته أمامها تثير الرجفة بقلبها، سألت بوجل: ماذا تفعل هنا؟

أجاب ببساطة: جئت أرجو إعادة الزمن المتوقف بساعات عمري إلى عشر سنوات مضت.

رفت عيناها وقد عصي عليها فهم ما يقال، لكنه كان ذو رحمة فلم يتركها لحيرتها حين أكمل: أخبرتني والدتك بما فاتني من عمري معك، فوددت أن استكمل من حيث آخر لقاء جمعنا، فهل توافقين؟

أشرقت ملامحها بالفهم وبعض من المشاعر المكبوتة بينما تنشق دموعها قائلة بحنين: ليت ما جمعنا بآخر لقاء لم يكن، فسنوات عمري التي ضاعت فاقت سنواتك عددًا.

أمسك حقيبتها بينما مد يده قائلًا بشوق: إذًا فلنعوضها بما تبقى لنا.